الدراسة المنطقية

بقلم الأستاذ عبد الفتاح السيد مجاوى

أستاذ الآداب بالمعهد الأزهرى

الحاجة ماسة إلى التمرين فى كل وقت ، فنحن عرضة لأن نصادف من الظروف الصعبة ما لا نستطيع مغالبته دون أن نبذل جهدا عقليا كبيرا . وسواء أكان العمل الذى يفرض علينا إنجازه فى المدرسة أو خارج حدودها ، وسواء أرغبنا فى إنجازه أم لم نرغب ، فنحن أمام أمر واقع هو ضرورة الجهاد العقلى . وعلى هذا الأساس : وهو أن الحياة تمهد لنا سبيل التمرين وتهيئ لنا الظروف الداعية إليه نستطيع الحكم بأن الحياة مدرسة : وفيها يواصل الناس جميعا تمرينهم كل بما يتناسب مع حالته ، فمنهم العقل الصغير ومنهم الفيلسوف الكبير .

ولقد نشأت منذ آلاف السنين مسائل شغلت العقول الإنسانية وصرفتها عن كل شىء إلا الكشف عن حقيقتها واستثارة دقائقها ، فقد وقف الإنسان الأول أمام قوى الطبيعة التى ينالهُ نفعها وضررها حائرا ، ثم فكر فيها ماشاء له عقله ، ووصل بتفكيره إلى نتائج وإن لم تكن من العلم الصحيح فى شىء ، إلا أنها على الأقل نتيجة جهد عقلى بذله ليصل إلى معرفة حقائق الظاهرات الطبيعية المحيطة به .

فمن أمثلة ذلك أن قدماء المصريين رأوا الشمس تشرق كل يوم فى الصباح ثم تسير غربا حتى تختفى وراء الأفق ، فتساءلوا قائلين ترى إلى أين يكون مصيرها بعد الغروب ؟ ؟ – فكروا ، ثم وصلوا عن طريق ذلك التفكير إلى أن هناك بحرا سحيقا (أى سماء أخرى) يمتد من الأفق الغربى ويتصل بالأفق الشرقى مرة ثانية ، وخيل إليهم أن الشمس بعد غروبها تمخر عباب ذلك البحر الهائل فى زورقها حتى تصل إلى الشرق فى الصباح الجديد . ومن هنا بدأ الاعتقاد فى العالم السفلى بما فيه من آلهة ! – هذا تفكير ساذج ، إلا أنه كان أقصى ماوصلت إليه النزعة الإنسانية حينذاك لتفسير هذه الظاهرة .

واليونان مثلا فكروا فى عناصر الطبيعة التى تحيط بهم ، فوجدوا أن النار تحرقهم والمياه تغرق سفنهم والعواصف تهب فتتلف زرعهم وضرعهم ، ثم وصلوا عن طريق ذلك التفكير إلى أن هذه الظاهرات الطبيعية التى تمثلت أمام أعينهم فى قوى الطبيعة لابد وأن تكون صادرة عن كائنات حية مفكرة بيدها

وبين الإنسان تشبه أوجه شبه كثيرة . وعلى هذا الأساس فكل قوة من قوى الطبيعة كائن روحى ثم جاوزوا ذلك إلى أن جعلوا من هذه الكائنات أشخاصاً يذكرونها بأسمائها ، فكان للسماء الإله (زوس) وللأرض الآلهة (ديمتر) وللبحر الإله (بوزيدون) إلى آخر ما هنالك من أسماء آلهتهم العديدة

والعلماء إلى اليوم لا يزالون يوالون البحوث ويجدون وراء كشف القناع عن كثير من المسائل الأخرى ، ثم هم فى الطريق لم يصلوا بعد إلى نتيجة حاسمة يصح اعتبارها من عناصر العلم الصحيح البعيد عن متناول الترهات ، ومن بين هذه المسائل مسألة الروح وما وراء المادة ....

والعصر الحديث حافل بالمسائل الهامة ، بعضها أورثته إيانا الأجيال الغابرة والبعض الآخر حديث ، فبين ظهرانينا من يخاطرون بحياتهم فى سبيل كشف مجاهل القطب الشمالى ، ومن يعنون بالطيران ، ومن يبحثون فى علل الأمراض ويرجعونها إلى أصولها ويتعهدونها بدوائها ، ومن وهبوا حياتهم لتربية النشء وتثقيفه ، ثم إلى جانب أولئك جميعاً نجد أناساً لا يزالون يفكرون فى طريق نيل ما يمسكون به رمقهم ؟ ؟ ؟ . . . . كل هذه مسائل تواجه الإنسانية الحاضرة وتستنفد أكبر جهد ممكن من تفكيرها .

• • •

ولما كان الإنسان لا يولد حائزاً لكثير من الغرائز الثابتة التى تحكم حركاته وسكناته فى الظروف التى يريد أن يأتى فيها عملاً من الأعمال ، فليس من شك فى أنه يفكر دائماً فيما يجب عليه عمله ، ثم هو يتعدى ذلك الحد إلى تقرير الخطة التى يسير عليها وتحديد نوع الأفكار التى يجب أن ينتهجها فى حياته العملية . .

فمثلا إذا اختار شخص سبيلا يتوجه إليها فى الحياة ، بأن قرر مصير مستقبله من وراء عمل معين ، فإنه يجد نفسه محروماً من الغرائز التى تبين له الوسائل المنتجة التى يستطيع بوساطتها ضمان النجاح . كذلك ليست للإنسان تلك الغريزة التى تقرر مسألة عامة تتناول الأمانة والخيانة أو الخير والشر ، وتبين له أيها أفضل من وجهة عامة أو أيهما أفضل فى ظروف خاصة ، وإذاً فنحن مرغمون على الاستقراء والبحث والجهاد العقلى ، نحن مرغمون على أن نكون طلاباً للحقيقة ما دمنا غير قادرين على تفويض حلها للمسائل كلها بمحض اختيارنا ، وما دمنا نؤثر العمل والتقدم على الخمول والجمود . . .

ومن أهم الموضوعات التي يتحتم على الناشئ أن يدرسوها وأن يعنوا بها العناية كلها (موضوع الدراسة نفسها) ؛ فلهذا الموضوع خطره وأهميته العظيمان ، لأننا إذا لم نعرض بطبيعة الحال دراسة صحيحة فأمامنا سبيلان : الأول أن نتعلم كيف نسير في دراستنا ، والثاني أن نضرب صفحا عن هذا التعليم ، ويكون من وراء ذلك تخبط في الدرس وضياع في الجهد والوقت ووصول إلى نتائج غير صحيحة أو عدم الوصول إلى أية نتيجة على الاطلاق .

* * *

فإذا عالجنا المسألة من ناحية تعليم الناشئ طريقة الدرس الصحيح ، وجدنا أنفسنا مضطرين في بداءة الأمر أن نلم بطبيعة عملية الدرس ! ! يجب معرفة شروطها وقواعدها وخطواتها — وهذا ما يواجه الأمهات والآباء والمعلمين ، لأن هؤلاء وحدهم هم الذين يودع بين أيديهم الناشئون لتعهدهم ورعايتهم وتعليمهم طريقة الدرس الصحيح .

وأول ما يحق تناوله هو تعريف الدراسة حتى لا يكون في سياق البحث شيء من سوء الفهم أو التفاهم ، وحتى نضمن الاهتداء إلى ضالتنا ضمانا أكيدا فالدرس بمعناه الأسمى عملية الغرض منها إيجاد القربة والوحدة العامة بين مختلف العلوم وربطها بعضها ببعض بحيث يسهل قيام جزئياتها الواحد على أساس الآخر قياما معقولا يطابق المنطق ، ثم ترتيب التجاريب الانسانية بحيث يسهل علينا الانتفاع بها .

ولكن كلمة الدراسة كما نستعملها نحن في حياتنا المدرسية تدل على أقل من هذا بكثير . فهي تتضمن كل جهد عقلي موجه إلى إدراك غاية معينة ، سواء أكانت هذه الغاية هي تذكر الحقائق والنقط الهامة التي يبني عليها درس من دروس التاريخ أو الجغرافية واستحضارها عند الحاجة ؛ أم حفظ حكاية من كتاب المطالعة ، أو مذاكرة هجاء بعض الكلمات .

وفي إطلاق كلمة الدراسة على هذه المعاني العامة كلها تقليل من قيمتها ، لأنها في هذه الحالة تشمل حركة الفكر في إخراج الأفكار سواء أصبحت من العناصر في تكوين العلوم المختلفة أو لم تصبح ! !

فمعرفة السنوات الهامة في دروس التاريخ وحفظ القصائد عن ظهر قلب في دروس المحفوظات واستيعاب التعاريف والحدود في المواد المختلفة ، كل هذه لا يصح أن تكون من الدراسة الصحيحة في شيء قليل ولا كثير ولكن الكثير من المعلمين يطلقون على الجهد الذي يبذله تلاميذهم في سبيل

تحقيق هذه الغايات كلها نفس الأسم الذي يطلقونه على جهد يبذله فيلسوف يبحث في إحدى مسائل الكون الغامضة ، ويصل بأبحاثه إلى نتائج خطيرة أهمها إيجاد العناصر التي تدخل في تركيب العلوم ، والواقع أن هذين النوعين من الدراسة مختلفان أختلافا عظيما : فالنوع الأول عمل ميكانيكي محض ، تكون النتيجة المباشرة التي يؤدي إليها زيادة المعلومات وحسب ، أما النوع الثاني فعنصر بعيد المدى ، وتكون نتيجته المباشرة ترتيب الأفكار وجعلها متقاربة بحيث يقوم منها بحث منطقي صحيح ، أو قل إنها تتضمن التفكير الصحيح .

وخلاصة القول فان ذلك النوع الأخير من نوعي الحركة العقلية هو الذي نعتبره درسا صحيحا ، وهو الذي قصدنا إلى بحثه وإشباعه في هذه المقالات .

« * »

والكثير من المعلمين على أن ماهية الدراسة إنما هي التخيل والتذكر والتفكير وأمثال هذه الحركات العقلية ، أو بمعنى آخر أنهم يعتبرون الدراسة عملية سيكولوجية محضة ، وليس من شك في أن هذه الآراء ليست في شيء من الطريقة الأولى للدرس ، لأن القائلين بها قد أغفلوا عنصرا هاماً هو تحديد الكيف والزمان اللذين يهيأ للإنسان فيهما أن يتخيل أو يتذكر أو يفكر . أن عملية الدرس يتحتم أن توضح وتفسر بحيث لا يداخل النفس أي شك في أمرها ، وبحيث لا تكون غامضة مغلقة كما هو حالها في هذا الاعتبار السيكولوجي الذي قد يدخل ضمنا في عناصر عملية الدرس وقد يكون بعيداً عنها .

ولو أننا معاشر المعلمين فهمنا طريقة الدرس الصحيح فهي دقيقا وأصبحنا قادرين على تلقينها لمن نعنى بتثقيفهم وتهذيبهم لانحلت عقدة العقد في شئون التربية ، ذلك ما سأحاول أن أوفيه حقه إن شاء الله . . .

(يتبع) عبد الفتاح السرنجاوي

أعتذار

ضاق نطاق العدد عن نشر كثير من مقالات حضرات الأخوان وان شاء الله سننشرها تباعا مع تقديمنا بجزيل الشكر لحضراتهم على أرسال مقالاتهم القيمة